ولا تحرك الواحدة دون الأخرى

لوس إيريغاري

ترجمة وشرح حُسن عبود

لقد أزحت المقدمة المخصّصة لترجمة مقالة لوس إيريغاري إلى الخاتمة،[1] بغرض عدم حرمان القارئ/ة من التمتّع بأسلوب إيريغاري الشعري والاستفزازي ولحثّه/ها على التفكير بنفسه/ها. إن قراءة نصّ من هذا النوع يفسح المجال للخوض بالتجربة التحوّلية أي أننا لا بدّ أن نطرح أسئلة جديدة على أنفسنا بعد الانتهاء من القراءة لأن الخوض في موضوع بهذه الحميمية (العلاقة بين البنت وأمها أو العلاقة بين الابن وأبيه) ومواجهة «جسد الأم» و«انعطافاته» يُحمّل قراءتنا قلقاً داخلياً.

أمّي! شربت مع حليبك الصقيع.

وها أنا الآن هنا، في داخلي هذا الجليد. وها أمشي بصعوبة أكثر مما أراك تمشين، وأتحرك الرويدا. أفضتِ فيّ وأصبح ذلك السائل الساخن سمّاً يشلّني. فلا يدور دمي دورته في قدميّ وعند يديّ و حتى قمّة رأسي. جمد وثقل من البرد. تعوّقه كتل ثلجٍ غليظة توقف دفقه. يتخثّر الدمّ. ويبقى قربي. ويبقى قرب القلب.

ولا أحسن الركض نحو ما أحبّ. وكلما أُكثر من الحب أَغرق في الأسر وأتراجع بثقل يُقعدني. وأغضب وأصارع وأصرخ: «غادري هذا السجن.»

(١) حصلت الباحثات على إذن الترجمة (من الفرنسية إلى العربية) من المنظّرة النسويّة، لوس إيريغاري، ومن دار النشر Les Editions de Minuit بعد تبادل المراسلة بيننا بالبريد العادي وبعد تبادل مراسلات عديدة بيننا بالبريد الإلكتروني ولهما جزيل الشكر.
Luce Irigary. **Et l'une ne bouge pas sans l'autre**. Paris, Editions de Minuit, 1979.

أيُّ سجن؟ أي رواق يسوّرني؟ لا أرى ما يأسرني! فالسجن داخلي وبه اعتقالي.

كيف أنجو؟ ولماذا إذاً أنا محتبسة؟

تهتمين بي. تحرسينني. تريدينني تحت أنظارك، لتحميني. تخافين حادثاً يصيبني. أتخشين من الشيء الذي سيقع؟ لكن ما هو هذا الذي سيكون أسوأ من استلقائي الكسول ليل نهار؟ مكتملة النمو وماكثة في المهد. اعتمادي دائماً على الذي يحملني ويحضنني.

من يحملني...؟

من يحضنني...؟

يصلني نور ضئيل. شيء ما، داخلي. يُبدي حركة. بالكاد. شيء جديد. قد أبداني الحركة. كأن اتّخذت الخطوة الأولى بيني وبين نفسي. كأن نفذت نسمة هواء إلى الأنا المذعورة واقتلعتها من أرضها. أيقظتني هذه (النسمة) من سبات طويل. من حلم قديم. رؤية ما كانت يجب أن تكون لي غير أنها أسرتني. هل كنت شاركتُ فيالحلم؟ أم كنت الحلم بعينه؟ في هذا الحلم أو في الحلم الآخر.

بدأت أتنفّس، أم استعدت أنفاسي. غريب. أقف بلا حراك، وأشعر بذلك الشيء يتحرك داخلي. يدخلني، يتركني إلى الخارج ثمّ يعود إليّ ليترك من جديد. كل هذه الحركات أصنعها بنفسي. ما من أحد يمدّ لي يده. عندي بيت في أحشائي، وبيت خارجيّ، وآخذ نفسي من الواحد إلى الآخر، من الواحد في الآخر. ولا أحتاج إلى بطنك، ذراعيك، عينيك، أو كلماتك لأُقبل أو أرحل. قريبة منك وبيننا مساحة.

طلع الصباح، أول صباح لي.

صباح الخير. أنتِ هناك.

أنا هنا.

بيننا كثرة الهواء والنور ومكان نتشاركه. لا أبدي أي قلق. فلست ملاحقة بالوقت.

ويغيب النهار. جائعة. ليست لديّ قوّة للمشي. للركض وحدي قريبة منك أو بعيدة عنك. لأسير نحو ما أحب.

لقد أعددتِ الأكل. تقدمينه لي. تطعميني نفسك. تطعميني نفسك بكثرة، كأن تريدينَ إشباعي إلى النهاية بإطعامي. تضعين نفسك بفمي وأختنق. ضعيها بأقلّ من

ذلك ودعيني أنظر اليك. أحب رؤيتك وأنت تهتمين بي. لا أن أفقد/ نفقد النظر عند فتح فمي. إبقي قريبة مني وأنا أشربك. وأحبذ بقاءك خارجاً أيضاً. إبقي/ أبقيني خارجاً أيضاً. لا تغمري نفسك/ تغمرينها بالذي يفيض منك. أحب حضورنا. حتى لا تتوارى الواحدة منا في الأخرى أو الأخرى في الواحدة. حتى نتذوّق بعضنا، نحسّ بعضنا، نسمع بعضنا – نرى بعضنا.

أراني أشبهك وتشبهينني. أنظر نفسي فيكِ، تنظرين نفسكِ فيّ. كبرتِ وحسب وبقيتُ صغيرة. لكن أتيت منك، وها أبدو الآن أمام عينيك، أنا أنتِ الأخرى المفعمة بالحياة.

يشرد ذهنك دائماً وتتوارين. تبتعدين. خفيةً تتأكّدين من وجودك في المرآة. وتعودين إلى طهو الطعام. تتغيّرين وفقاً للساعة. تتحللّين حسب الوقت.

أيّ وقت؟

لماذا الوقت؟

وقتٌ لمن؟

أرغب في سحق عقارب هذه الساعة. وأبيحي لي مراقبتك. وانظريني. أريد اللعب معاً لعبة التماثل والاختلاف. أنتِ/ أنا نتبادل الأنفاس بلا نهاية، وأنتِ/ أنا تبقى كل منا بنفسها مرايا حيّة.

سنلعب «بالطابة»، أنت وأنا. لكن من يرى أن ذلك الذي يرتدّ بيننا– هو صورة. تعطيها لي وأعطيها لك. دون نهاية. ولن نحتاج أنا/أنت إلى كرة حتى تبدأ لعبة الرمي والتلقي. أرمي صورة عنك لك، تعيدينها لي، مرة أخرى تتلقينها.

لكن. يبدو أنك تتلقين نفسك، ومرة أخرى ترمينها لي:

«تريدين بعض العسل؟»

«حان وقت الأكل.»

«كلي لتكبري.»

مرّة أخرى رحلتِ. مرّة أخرى تذوبين في الغذاء. مرّة أخرى نختفي في مسرحة التهام إحدانا الأخرى. لا أكاد ألحظك وأمشي نحوك حتى تتحوّلين إلى حاضنة. مرة أخرى تطعمينني ملء فمي، ملء بطني، لتجعلي نفسك مادة وفرة للفم والبطن. لا تريدين لغير الدم، الحليب، العسل واللحم (لا أرغب في اللحم فأنا أخاف موتك داخلي) أن يمرّ بيننا.

ألن يكون أبداً بيننا غير حب ملء هذه الفجوات؟ أتكون رغبتك الخالصة هي أن

ننهي كل الذي قد يقع بيننا ونختم عليه بالموت الأخير؟ أويكون مسعاك الأخير هو أن نتقلّص إلى سلع، إلى نساء تستنفدها السلع؟

لا أريد هذا الجسد المشدود، المغلق عليه، المصاب بالشلل. لا. أريد الهواء. وإذ تقودينني مراراً إلى هذه المطابقة العمياء لك– أتساءل من أنت؟ – إذ تديرين وجهك عنّي، تعطينني نفسك بشكل يُفقِدُ الحياة، تهجرينني إلى رجال أكفّاء لتفكّين عجزي/ عجزك – إذ تتركيني، سأقصدُ أبي. سأتخلّى عنك لأجل من يبدو أكثر حيوية. إلى من لا يهيّئ لي طعاماً لآكل. إلى من يبقيني فارغة منه، فمٌ منفرج على حقيقته. سألاحقه بعينيّ، سأصغي إلى ما يقول، سأحاول أن أمشي وراءه.

يترك لي البيت، وحالاً ألحقه. وداعاً يا ماما. لن أكون على صورتك.

أقصد رياضة الجمناستيك. أقوم بالتمارين الجسمانية، تلك التي تليق بسقمي. سأتعلّم بطريقة ميكانيكية. أشعر بغير انفعال. أتقدّم وأتحرّك وفق إيقاع يقتضيه شفائي. تحرّكاتي واندفاعاتي ورقصاتي كلها لن تتجدّد بالحبّ لكن بالإرادة. تراني في كل ساعة من ساعات النهار أنكبّ على محاولة الإذعان لأوامر الطبيب. أوافق على تشريحهم وضعيتي. بالكامل. أصغي إليهم بكل اهتمام، بكل طاقتي. سأكون التجربة الحيةّ لصحّة قواعدهم. بسبب هذه القناعة– قناعتهم– أصبح مفعمة بالحياة.

أنظري! من بعيد! كيف أمشي بخطوات منتظمة، أنا، التي أقعدها الغضب في الماضي. أما ترينني أكثر رشداً الآن؟ فتاة أقرب إلى الكمال؟ لا ينقصها غير قليل من الأثواب والجواهر الكريمة، شيء من الزينة، قناع وبعض البراعة الفنيّة لأكون أو أفتعل الظهور بشكل بلغ حدّ التمام. وبدأ منظري يوحي بالمنظر المتوقّع مني. كما يتوقَّعُ ظهوري. بعض الجهد، قليل من الغضب نحوك أنت التي تريدين لي البقاء صغيرة، أنت التي تريدين لي أن آكل ما تأتيني به أكثر من أن ترينني ألبس زيّك، وسأخطو خارج حلمك. خارج اضطرابي. خارج حالك بي/ حالي بك. سأغادرنا. سأذهب إلى بيت آخر. سأعيش حياتي وقصّتي.

أنظري كم تعافيت الآن. حتى أنني لا أحتاج إلى اللحاق بالرجل، بل هو يقصدني. يقترب مني. أنتظره دون حراك. بسكون. ها هو بجانبي. أنفعل. ولا يدور دمي دورته. و بالكاد أتنفّس. أرحل.

لكن لا أستطيع ان أقول لك «أين». انسيني، يا ماما. انسي نفسك فيّ / انسينا. لننسى بعضنا. وتمضي الحياة...

تتأملين نفسك في المرآة. وحالاً ترين أمك. وسرعان ما ترين ابنتك/ أمّ. بين

الاثنتين من أنتِ؟ أين تستعيدين نفسك بين الاثنتين؟ بأيّ قالب توقعين نفسك؟ كيف يبين وجهك فوق كل هذه الوجوه؟

إنه المساء.

وما دمتِ وحيدة، وكما أن الصورة التي تظهرينها أو تفرضينها علينا قد اختفت، تقومين بخلع أقنعتك. تخلعين وجهك، وجه أم البنت، وجه بنت الأم. وتفقُدين انعكاسَ صورتك. .تذيبين. تذوبين. تفيضين خارج نفسك. لا يوجد أحد ليضمّ أجزاءك بعضها إلى بعض، ولا شيء يوقف هذا السيل. سيختفي وجودك قبل نهاية هذا النهار ما دام هذا النزيف مستمرّاً. بالكاد تبقي الذكرى الفوتوغرافية على علامة النقلة بين أمك وابنتك. وربما لا شيء أبداً. ويستمرّ نشاطك بلا وجه. ويتقدم الغذاء تشكّل الصورة. طبعاً! هناك التوقف القصير، ذلك الذي تحتاج إليه الواحدة لتصبح الأخرى. ويأتي الاستنفاد قبل أن تتكون أي رؤية عنها هي التي تقدّم ذاتها. لقد تبخّرتِ، بلا وعي، بغير إدراك. تدركين فقط بفضل هذا الفيض الذي يطفو إلى الفم. ذاك الفيض الذي يدخل في الأخرى من مسام جلدها. يتسرب ذلك الفيض ويحتلّ الجسد حتى يزيل أي مساحة ممكنة بين الاثنتين، بين الواحدة والأخرى، حتى يزيل الفيض كل فاصلة بين الأخرى والواحدة. حتى لا يبقى غير هذا السائل الذي يفيض من الواحدة إلى الأخرى، هذا السائل الذي هو مادة بلا اسم.

يا أمي! هذه الليلة لا وجود لواحدة لتدخلك ذاتها. لا وجود لواحدة لتعطش إليك، لتستقبلَك لذاتها. لا واحدة هنا لتفتح فاها لك لتفيضي بداخلها. لتبقيك حيّة. لا واحدة هنا لتضع زمناً لوجودك، لتثيرَ فيك طقس العبور خارج ذاتك، لتقول لك: تعالي هنا، إبقي هنا. ليست هنا لتقول لك: لا تبقي أسيرة المرآة، أسيرة هذه الخسارة الذاتية المتواصلة. ذاتٌ منفصلة عن ذات أخرى. ذات تشتاق إلى ذات معيّنة أخرى. ذاتان مائتتان تفصل بينهما مساحة دون أي عقد رباط. الذات التي ترينها في المرآة قمعتها الذات الحاضنة. وبرحيلي خسرت المكان الذي تكشّف عن وجودك حينها.

أو كذا فكرتِ. لكن بتخلّصك من الصقيع، ألم تطفئي عطشي بعجزك؟ وفي حين لم تعرِفي وجهك أبداً، ألم تطعميني ما لا يُحْيي. وتفيضُ بدمكِ وبحليبكِ سراباتٌ رملية. مُزِجت هذه السرابات بمادة سائلة– ساكنة سرعان ما تجمدت في كل تبادُلنا لتوجد بيننا المستحيل. وأصبحتُ بالضرورة الحقل المقفر لانعكاساتك. تريدينني أنتِ التي أردتني أن أكبر، أن أمشي، أن أركض لأهزِمَ وهنك.

ليتحرك جسدك بإيقاع رغبتك أن تري نفسك حيّة، أنت التي بالعمى حبَستني

لنفسك (في غياب الحب الذي أثار أو رافق حركة قسمات وجهك وإيماءاتك). لقد رغبتني، أهذا هو نوع حبّك؟ أن تأسرني رغبتك لانعكاس الصورة وأصبح صنماً، صنمٌ يخيفه توقّعات حركتك.

في المكان حيث أردت لنفسك الظهور لم تتلقّي إلا الشفافية وقصور الذات. أجواء حتماً خالية من أي انعكاس لك، جسد غير آهل بمعرفة الذات.

قد تجتازين مراراً كل مناظر الطبيعة والآفاق دون ملاقاة ذاتك. أو إزاحة الذات من مكانها، الذات التي هي أنت، والذات التي صنعتها، والتي تعوق تقدمك/ تقدّمنا. ويحجب الغشاء أي حركة في اتجاه النور.

من أنتِ؟ من أنا؟ من يؤكّد وجودنا في هذه الشفافية (نصف الشفافية) أمام هذا المعوّق الأعمى؟

وإذ أرحل لن تلاقي نفسك.

ألم أكن الضمانة للإبقاء على حياتك؟ البديل ريثما تعودين؟ حارسة الحدود؟ هي التي تؤكد لك ملاقاة نفسك دائماً من جديد، أمسكيها، بأيّ وقت، بين ذراعيك؟ أبقي على حياتك؟ تغذّي باستمرار في محاولة العيش؟ أطعمي ذاتك دماً وحليباً وعسلاً مراراً (لم أرغب في لحمك يوماً)، حتى تحاولي استعادة نفسك للعالم؟

لكن هذه هي حال الانتظار، هذا المساء لن يأتي أحد. تمضين نحو مستقبل ذي نقصان. لن يكون هناك أحدٌ ليتذكّر حلمك عن نفسك. لا البيت، لا الحديقة، كل مكان فَرِغ منك. تبحثين عن نفسك في كل مكانٍ سدى. لا شيء أمام ناظريك، بين يديك، في جلدتك يذكّرك بنفسك، ليتيح لك رؤية ذاتك في الذات الأخرى. وهذا يجعلك تُفرغين ذاتك أكثر في جسدي– لتبقي على ذكرى ذاتك، لتعزّزي مظهرك.

لا يا أمي، لقد غدوت بعيدة.

لكن! ألم أعرفك دائماً على هذه الحال من الغياب؟ أولم أكن سبب اختفائك. عندما تلقيتُك في داخلي، أكون خرجت منك في الحال. وفي ذلك الحين تصبحين أسيرةَ سجنٍ آخر. وفي ذلك الحين تدخلين تحت تحديقة شخصٍ آخر. كنت تتنقلين قبلها في عالمٍ لا مكان لي فيه. لم يصلني منك غير نسيانك للذات فقط، بينما سمح وجودي لك بإغفال هذا النسيان. إلى حد ان أثنيتُ على غياب حضورك بظهوري الحقيقيّ.

لكن النسيان يتذكّر نفسه عند فقدان ذاكرته.

وها هنا أنتِ، في هذه الأمسية بالذات، تواجهين العزاء الخالي من التذكّر. بعتِ واشتريتِ فراغاً لا يثير أيّة ذاكرة. فراغٌ يصرخ في صداه المرتدّ إليه. تجارةٌ تكسب فراغاً يتنصّل من قبضته. قفل يختم على حائط أسرك. دعامة لمستقبل ممكن، مستقبل- لو أخذ- يدفع كل شيء إلى الانهيار الأخير.

أين أنت؟ أين أنا؟ كيف أقصّ أثرَك؟ من الواحدة إلى الأخرى؟ من الواحدة في الأخرى؟

تهبطين تهبطين من جديد تحت الأرض. وحيدة. حيث يبدو مشينا. مشت الواحدة، مشت الأخرى. الواحدة أو الأخرى. تنازلتِ عن قوّتك، عن استقامتك. قست خطواتك، قست قسمات وجهك بالعزم الذي يجالس العزلة. تعودين إلى هذا الكهف الذي لم تجدي له باباً. إلى هذا القبو الذي نسيتِ عتبته. إلى هذا الخرق في ذاكرتك حيث سكوت طلق ولادتي منك قد وأد- سكوت انفصالي، غير المنقطع عنك. عن ضبابية حملك بي.

ماذا حصل في عتمة بطنك لتخفي وجودي عنك؟ بين أنتِ وأنا، كيف تختلف الواحدة عن الأخرى؟ أيّ خيال أو أيّ نور أضاء داخلَك وأنت تحملين بي؟ ألم تشعّي وأنا أكبر، وقد علقت في أفق جسدك؟ أولم تشعري بالكدر حين ارتوت جذوري بتربتك؟ كوردة شربت لتنمو بنفسها. لتتأمل نفسها دون البحث عن صورتها. تفتّحٌ لا يغريهِ أيّ تقولب. إزهارٌ يجتهد حدوداً جديدة. تصميم يغيّر ذاته في كل خطوة. حسب ساعات النهار. يفتح دفق حياته. دوران، انصراف، عودة حسب ما يدفعها نحو شعاع الخلق أو الظهور، أو إمساك قرب مخبأ سقايتها الأولى؛ تسعد عند مناخ خالٍ من الذِهان. تصل إلى لحظة الفرح لا بسبب تحديقة العيون في بحثها عن غموضها لكن بذروة إيقاعها الخاص ومقاسه. مكتملة التفتّح، محتجزة بسداد الرؤية الضائعة. بضيق من الجانب الأعمى لسؤال دون إجابة.

ألم أكن ضمانتك المتوقّعة؟ صورتك الجانبية التي سرقتها الأخرى منك؟ الجلد الذي قد تزيله الأخرى عنك؟ مشتتةً عن معرفة الذات، تُلقين عليّ بعذابات ضياعك هذا باستمرار، بكل خطوة، حتى تشكلين بي قدرك المجهول. لم ولن تكتمل (شخصيتك) إلا بصورة سلبية تعودين بها إلى نفسك/إليّ.

«ها هي هنا التي سأكونها، أو كنتها أو أتمنى أن أكونها»- هكذا رغِبتني عند ولادتي؟ وكيف أولد من الفراغ؟ أين أولد خارج ذاتك؟ فحتى حين أنهيتِ تصميمي على شاكلتك لم أكن خرجت منك بعد.

أمي أطعمتني مع حليبك الصقيع.

وإذ أرحل تفقدين انعكاس الدنيا، دنياك أنت. وإذ أبقى أبقى الكفالة لموتك؟ كل منا تفقد صورها: وجهها وحيوية جسدها. وتندب الواحدة الأخرى. ويشير عجزي إلى اختفائك في المرآة.

وحين أرحل، ألا يشكّل رحيلي نفيك النهائي؟

ومتى أتناوب فقدان الوعي بالذات؟ أنا أيضاً يأسرني الرجل حين يحدّق بي؛ أنا أيضاً عديمة الإرادة. بلا حراك الا من الانعكاس الذي ينتظره مني. يحيلني إلى وجه يشكّله لي وبه ينظر إلى نفسه. يسافر على هوى أحلامه وسراباتها. أقع في شرك الأمومة.

* * *

ألم تسمحي لنفسك بأن أضع يدي عليك؟ ألم أمسك رأسك بين يديّ؟ ألم أعرف جسدك يتدفق رغبةً؟ يتحسس مكان عبوره، عبوره بيننا. تشكّل من تحديقتك مادة هوائية تكسوني وتحميني من التماثل بك. من فمك/فمي، أفق بلا نهاية. بك/بي ومنك/مني، بلباس أو بعُري، سببه نوع جنسنا. مقاسنا. ليس واسعاً ولا ضيّقاً. لا كبيراً ولا صغيراً. مفتوح بغير شرخ.

ولماذا بعد أتأذّى؟ ألم أحز على شفتيّ / شفتيك. هذا الجسد الذي يكشف فقط على الأشياء التي لم ننتهِ من قولها. حاجز الصمت هذا حيث باستمرار تغلف إحدانا الأخرى لنولد من جديد. إلى حيث نأتي لنعيد معرفتنا بأنفسنا وببعضنا، حتى نصبح نساءً وأمّهاتٍ مرّة بعد الأخرى.

لكن لم يسبق وأن تكلّمنا معاً. وهذا الجحيم يفصل بيننا إلى درجة أني لا أتركك البتة لأني أرتدّ دائماً إلى رحمك. مدفونة بالعتمة. بسجن الالتصاق.

ولا تحرّك الواحدة دون الأخرى. ولكن لا نمشي إلاّ معاً. وحين تأتي الواحدة منا إلى العالم تهبط الأخرى تحت الأرض. حين تحمل الواحدة، تموت الأخرى. ويا أمي ما أتمناه هو أن نقصّ حبل الخلاص.

المقدّمة

تواجه إريغاري في منهج تحليليّ ولغة شعرية حسّيّة أداء الأمومة المتوارثة قاصدةً تجريد المرأة/الأم من مواد الرعاية التقليدية بغرض إعادة مواد أخرى إليها كاملةً. فالتحرّر من هذا الدور ليس دعوة إلى رفض الأم أو كرهها أو اختزال دورها بل هو دعوة لخلق الحدود الضروريّة للفصل بين المرأة والأم.

مثلاً تقوم المرأة بدور أمومي يدمر الابنة من داخلها ويجعلها عاجزة. فالأم التي لا تتبادل وابنتها إلا بضاعة الإطعام المبالغ فيه سرعان ما تتحوّل الأم بهذا السلوك إلى مادة الطعام نفسها. فتختنق البنت لا بالدم أو الحليب أو العسل بل بالأم. وتحكي البنت عن النور الضئيل الذي يصلها، كالأمل في التحرّر والاستقلال. وحين تصف سكَنَها بين بيتين وما تصنعه من حركات بيديها تصوّر ذلك لإثارة لغة الرغبة وتصعيدها قبل أن تواجه قامة الأم كمقامها. ومحور «البيت» مقصود به محور «اللغة» أيّ البيت الذي تحتاج إليه النساء ويرمز إلى اللغة والتمثيلات والتصوّرات المغيّبة.

ثم تدخلنا إيريغاري إلى صالة لعبة التماثل والاختلاف– أي أن نتماثل بعضنا ببعض لكن بغرض أن تقام بيننا مساحة الاختلاف– حتى انها تشبّه هذه اللعبة بلعبة «كرة الطائرة» التي تتبادلها الأيدي بينما الكرة المتبادلة هنا هي الصورة المعكوسة التي تبدأ بها لعبة الرمي والتلّقي. وهذه اللعبة المسيّسة في تبادل الصور تدل على صعوبة الاستقلال بالذات من جانب الأم باتّجاه ابنتها ومن جانب البنت باتّجاه أمّها، فتصبحان في هذه اللعبة مرآتين متقابلتين. وحاجة إظهار الاختلاف ضرورية ليس فقط بين الجنسين (بين المرأة والرجل) لكن ضمن الجنس الواحد (بين النساء أو بين الرجال). ثم تعود فتذكرنا إيريغاري بمادة الطعام وتنزلها منزلة السوائل بقصد الإشارة إلى جسد الأم لأن الحليب يذكّرنا بصدر الأم والدم والعسل واللحم جميعها مواد لها علاقة بالجسد وملامسته. لكن هذه السوائل تصبح جوهر الأم الطبيعي لأنها لا تقدّم غيرها مادة للحب والتبادل. إلى درجة أن الأم والابنة تتقلّصان إلى سلع الاستهلاك التي تستنفدهما. وهذا ما نشهده في بعض مجتمعاتنا اللبنانية، فأحياناً لا نرى الأم تطعم إلى حدّ التقيّؤ بل نرى الخادمة السريلانكية تقوم مقام الأم في عملية الإملاء والإفراغ هذه دون الانتباه إلى أن دور الأم لا يقتصر على موضوع الغذاء. فتصاب البنت بالبدانة. وهذا ما نراه يكثر في بعض المجتمعات العربية (البدانة في المجتمع السعودي عند الفتيات والفتيان أيضاً) وهذه البدانة هي نفسية ومعنوية وليس جسمانية أو غددية.

وتقرر البنت أن تهجر بيت الأم إلى بيت الأب (البيت هنا كمرجع للاختلاف وليس كمرجع أبوي) لأنه أبقى لها مكاناً فارغاً (ليس من الطعام فقط) لتختبر ذاتها وتتحرّر عن طريق الاختلاف من ذات موروثة أو مفترضة. ولأنها تطالب بحقّها في الاختلاف، تقول: «لن أصبح أبداً على صورتك.»

وتمرض وتصف مرضها وعلاج الطب وقواعد الأطباء لتنتقل إلى مرحلة

استرداد العافية وتربطها بخلاصها من أسر أمّها. وتنتقل إلى العلاقة بينها وبين الرجل في محاولة لتحويل حبها لأمها إلى حب للرجل. أو بمعنى آخر لا تصل المرأة إلى حب الرجل إلا بعد أن تتحرّر من رغبتها في الأم، أي الرغبة في الحب الأول الذي يعود إلى الأم البدائية أي علاقة الطفولة الأولى بجسد الأم، العلاقة المبكرة التي تولد وقتها أو عندها الرغبات قبل أن يتعرف الطفل إلى وجود الأب ولغته وقوانينه.

تفشل وتترك الرجل كما تركت أمها. وتصب غضبها على الأم المقنّعة، الأم الوحيدة، الأم الموزّعة أجزاءً، الأم التي تنزف، الأم التي أضاعت مرحلة النقلة بينها وبين ابنتها. وتواجه الأم بحقيقة استقلالها عنها ومأساة الفراغ التي تشعر بها الأم:

«يا أمي! ليس هنا من أحد لتدخلك ذاتها..... وبرحيلي خسرت المكان الذي تكشّف عن وجودك حينها.»

وترينا أن اعتماد الأم على البنت هو اعتماد أناني غايته أن تحقّق الأم وجودها بابنتها لعدم ثقتها بوجودها منفردة وهذا احتياج ضعفاء النفوس، نفوس تتكّل على أن استمرار وجود الواحد وقف على وجود الآخر. ثم تكرر بلغة مؤلمة صور الأم الأنانية: «لقد رغبتني؟ أهذا هو نوع حبّك، أن تأسرني رغبتك لانعكاس صورتك وأن أتحوّل إلى صنم.» وتصوّر بلغة مخيفة صورة الأم غير المتحرّرة ذاتيّاً:

«في المكان حيث أردت الظهور لم تتلقّي إلا قصور الذات.»

ويتألّق التحليل النفسي لهذا الدور من الأمومة إلى مستوى ترينا به إيريغاري وصول الأم إلى الأسر الذي سبق وأن تحرّرت منه البنت عندما قررت التخلّي عن أمها (الدور الموروث من هذه الأم). وتشير إلى موت الأم المعنوي وفقدانها صورتها التي انتظرتها عن ابنتها.

وبينما هي تنهي وجود أمها المعنوي لأنه وجود مثالي، وجودٌ بلا فروق تُغني وتزيد، تعود فتذكّر بعلاقة التماثل بين البنت والأم وكأنها علاقة حب/ كراهية – علاقة الجسد/ بالصرّة التي تذكّر بحبل الخلاص مستخدمةً لغة حسّية و شعرية لتعلن:

«من فمك/فمي، أفقٌ إلى ما لا نهاية...بلباس أو بعُري، سببه نوع جنسنا.»

وكأنها بالنهاية تظهر تضامنها مع الفهم الذي يجب أن يكون بين نساء وأمهات الجنس الواحد. فمواجهة الأم المباشرة للتعرف إلى ذاتها يشكل الرغبة في معرفة الذات. ودعوة الأم إلى الاستقلال بذاتها هي دعوة للاستقلال بالذات. والعودة إليها

هي العودة إلى اللاّوعي ورغبته الحقيقية في معرفة ومواجهة الذات. فتكرّر عنوان كلمتها أو قصيدتها: «ولا تحرك الواحدة دون الأخرى».

* * *

لوس إيريغاري هي عالمة وأستاذة في التنظير النِّسوي، الفلسفة، التحليل النفسي والألسنية. ساهمت في تطوير التحليل النفسي النظري وبالأخصّ في موضعة اللغة والحضارة للرجل والمرأة–على شكل مختلف–من خلال التصوير «الرمزي». إن انتقادها للأمّ التقليديّة، «غير الكاملة» كما وصفها فرويد، (بشكل انتقدته جميع التيّارات النِّسوية) هو انتقاد لإعادة إنتاج المثال، الصورة طبق الأصل، بغاية زحزحة كل أشكال الإنتاج المعروفة وخاصّة الخطاب. فالرمزي كما تؤكّد إيريغاري هو التشبيهات الذكوريّة التي سرعان ما تتحوّل إلى قيم اجتماعيّة. إن استخدام إيريغاري للتحليل النفسي واللغة الشعرية الحسّية في هذه المقالة مقصود لغاية استراتيجيّة وليس للإبقاء على خطاب حسّي يتعلق بجسد الأنثى/الأم. فتصوّر إيريغاري وزميلاتها في Écriture feminine جوليا كريستيفا وهلن سيكسو هو أن القياس بين الجسد واللغة ممكن بغرض زحزحة اللغة الذكورية السائدة إلى حين دخول لغة الأنثى القابعة في الظلام والخفاء والذِهان. والعودة إلى جسد الأم في هذه المقالة وغيرها Et l'une ne bouge pas sans l'autre 1979, Corps-à-corps avec la mère 1981, Passions élémentaire 1982. لا يشير إلى انكفاء رجعي إلى العضوي أو التشريحي، بل يشير إلى دعوة الخروج من تكرار أنظمة الخطاب التي لا معنى لها والدخول إلى علم تشكّل آخر (مورفولوجي).

إن كتابة إيريغاري الشعرية في مقالة تتعلّق بالأم لها أكثر من مبرّر، وهذه من القضايا التي سيحملها القارئ/ة معه كأسئلة. إنما قد يلذّ للبعض قراءة النصّ بلغته الأصليّة (الفرنسية).[٢] وقد حاولت قدر المستطاع اللعب على قواعد اللغة العربية بقصد خلق أجواء مماثلة لخطاب إيريغاري، وربما أصبت حيناً وأخطأت أحياناً أخرى، لكن رسالة إيريغاري الأساسيّة في زحزحة مفاهيم معيّنة عن طريق زحزحة اللغة وتمثيلاتها المعهودة هي بيت القصيد. وأرجو أن تكون قد وصلت.

(٢) شكر خاص إلى الزميلة جمانة غزّاوي لاطلاعها على الترجمة العربية ومقاربتها للنصّ الفرنسي. وشكر خاص إلى الزميل حسن داوود لتحريره الترجمة العربية.